

دور ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الإستعماري

د. ابراهيم مياسي

معهد التاريخ - جامعة الجزائر -

المقدمة

ما كادت جذوة ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة تخبو ، حتى ظهرت ثورة أخرى أكثر مراسا وأشد عنفا وهي المتمثلة في ثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية أو ثورة الشيخ بوعمامة .

فبعد آخر المعارك التي خاضها فرع الشراقة ضد الاحتلال والتواجد الفرنسي حتى تشتتت العائلة وهاجر أغلب أفرادها إلى المغرب الأقصى وانتقل البعض الآخر إلى الجنوب ضواحي القليعة (المنيعة).

لم تشكل هذه الهجرة فراغا سياسيا بالمنطقة إذ ظهر على مسرح الأحداث الفرع الغربي لأولاد سيدي الشيخ. فلم تكد تنتهي السنوات الثلاث (1878 - 1880) ، و التي هي الهدوء الذي يسبق العاصفة ، حتى ظهر زعيم من فرع الغرابة متحديا أولاد عمومته الشراقة الفارين من جهة وصامدا أمام تسلط وتجبر القوات الفرنسية من جهة أخرى ذلك الزعيم هو الشيخ بوعمامة .

ترجمة للشيخ بوعمامة

هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن براهيم بن التاج والمشهور بأبي عمامة ، وهو سليل عائلة أولاد الحرمة التي

تتحدّر من أولاد سيدي التاج الابن الثالث عشر للجد الأول سيدي الشيخ ، وقد انحاز هذا الفرع في التراب المغربي بمقتضى معاهدة لالة مغنية ليوم 18 مارس 1845 ، لذلك يطلق عليهم اسم أولاد سيدي الشيخ الغرابة .

ولد بوعمامة حوالي 1838 أو 1848 بفيقيق في قصر الحمام الفوقاني⁽¹⁾ ، وتجمع الوثائق التاريخية على أنه غادر فيقيق نهائيا عام 1875 ليستقر بمغرار التحتاني الذي أسس به زاوية على غرار زاوية أجداده⁽²⁾ واتبع حياة الزهد و النسك حيث يقضي معظم أوقاته في التعبد أو تعليم القرآن أو دراسة المسائل الفقهية التي تطرح عليه.

وبهذا النشاط الحثيث و الحيوية المتزايدة ، حظي الشيخ بوعمامة باحترام وتقدير كبيرين من كل أقاربه وأتباعه ، واعتبر عندهم بأنه من أولياء الله الصالحين وبذلك أصبح زعيمهم الروحي الذي ورث البركة عن أجداده فازدادت شهرته ونفوذه في المنطقة ، فتكاثر عدد أتباعه ومريديه وإخوانه ، مما أثار انتباه السلطات الفرنسية التي انزعجت من هذا النشاط المتزايد ، وأصبحت تتحدث عنه في تقاريرها ، حيث اهتمت بنفوذه ومركزه في أوساط القبائل الجزائرية و خاصة الصحراوية منها ، فتكاثر عدد زواره لتقديم الزيارة (الهدايا) منهم قبائل الترايف وحميان وأولاد زياد والأغواط و

الأحرار وغيرهم، وقد وعدهم بوعمامة بقرب الخلاص من الاحتلال الفرنسي⁽³⁾ وانه سيشعل نار الحرب (الثورة) ضده ويخلص البلاد من ظلمه .

وقد أشيع في الأوساط الشعبية أن بوعمامة ورجاله سوف يطردون الفرنسيين من البلاد قبل حلول الصيف القادم⁽⁴⁾ (عام 1881).

أسباب الثورة

لقد تضافرت عدة أسباب مترابطة وجملة من العوامل المتداخلة، أسرعت بتفجير الثورة، نورد منها فيما يلي أهمها:

1 - لا شك أن في مقدمة الأسباب هو رفض الشعب الجزائري الاحتلال الفرنسي، ومقاومة هذا الدخيل كلما حانت له الفرصة.

2 - تشير بعض الدراسات الفرنسية إلى أن أسباب الثورة ترجع بالدرجة الأولى إلى انتشار المجاعة في أوساط الأهالي ، وذلك نظرا للنظام الاستعماري وأسلوبه في الجزائر والذي يقتضي أن يحطم ويخذل الإنسان العربي⁽⁵⁾ ويحط من قيمته في بلاده ، وقد حرمه من جميع وسائل الرزق حتى تسهل عملية إخضاعه للهيمنة الفرنسية وهكذا تتم السيطرة على السكان ثم الاحتلال الكامل للبلاد .

3 - فشل البعثة الرسمية لدراسة مشروع يتمثل في مد الخط الحديدي عبر الصحراء (Transsaharien) في الجنوب الغربي لإقليم وهران خلال سنة 1879 ، فقد أجبرت البعثة على العودة على أعقابها بعدما تحرش بها سكان قرية تيتوت ، لذلك عازمت الحكومة الاستعمارية على إقامة مركز عسكري للمراقبة في قصر تيتوت⁽⁶⁾ الذي هو بجوار المفرار التحتاني مقر زاوية بوعمامة ، وقد أحدث هذا النبأ قلقا متزايدا لدى بوعمامة و القبائل الصحراوية التي ترفض السيطرة الفرنسية عليها ، فأشعلت نار الثورة في وجه المحتل لتدافع عن مجال نفوذه بقيادة أولاد سيدي الشيخ وخاصة الفرع الأصغر الذي أصر بأن يلعب دور الزعامة بقيادة بوعمامة في هذه المرحلة من المقاومة . كما أن فشل بعثة العقيد فلاترس (FLATTERS) لنفس الغرض في الصحراء الشرقية الجزائرية ، وإبادة أفرادها ، خاصة الفرنسيين منهم ، من طرف قبائل الطوارق ، قد أثار غيظ الاستعماريين الفرنسيين بالجزائر ، وأرادوا الانتقام من الشعب الجزائري ، فاغتموا فرصة اشتعال ثورة بوعمامة لتنفيذ أغراضهم.

4 - استياء وتذمر القبائل الصحراوية ، وضميم قبائل جبال القصور ، خاصة قبائل آفلو والبيض التي منعت من التنقل بمواشيها إلى الجنوب خلال موسم الترحال وذلك في فصلي شتاء (1879 - 1880) و(1880 - 1881)، مما أدى إلى موت مواشيها بأعداد

كبيرة من شدة البرودة السائدة بتلك المنطقة ، حيث بلغت نسبة الخسائر التي لحقت بمواشي دائرة آفلو وحدها ، و المقدرة بثلاث مائة رأس 80% (37%) لسنة 1879 - 1880، 43% لسنة 1880 - 1881⁽⁷⁾ ، ويرجع السكان هذه الخسائر إلى سوء تصرف الإدارة الاستعمارية التي يجب تخليص البلاد و العباد من شرها ، ورأت في تباشير الثورة ، وفي أخبار الجهاد ضد الفرنسيين أملا في الخلاص من القيود المفروضة عليها .

5 - بالإضافة إلى الأسباب الداخلية ، هناك أسباب خارجية أذكت شعلة الثورة وهي خاصة غزو فرنسا للقطر التونسي الشقيق في مطلع سنة 1881 و الحوادث التي أعقبت هذا الاحتلال ، و التي كان لها وقع وصدى عند بوعمامة ورفاقه ، خاصة بعد أن تحول جزء كبير من الجيش الفرنسي المرابط في الناحية الوهرانية إلى تونس⁽⁸⁾ ليساهم في الحملة ضدها .

6 - إن الدعوة السنوسية المنتشرة عبر الصحراء والتي ترمي إلى مقاومة الاحتلال الأوروبي للبلاد الإسلامية ، قد وصلت إلى بوعمامة عن طريق مقدمها في عين صالح الحاج المهدي ولد باجودة⁽⁹⁾ وكان لهذه الدعوة الدور الهام في تشجيع بوعمامة ورجاله على الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي و التصدي لتوسعاته في المنطقة .

7 - كان لدعوة جمال الدين الأفغاني ، وحركة السلطان عبد الحميد العثماني ، الداعيتين إلى جمع شمل المسلمين في إطار الخلافة الإسلامية تأثير في نفس بوعمامة باعتباره رجل علم ودين متحمس وصاحب زاوية ينشد هو الآخر إصلاح المجتمع الإسلامي انطلاقاً من الجزائر ، وهذا الإصلاح يتطلب مقاومة السيطرة الأوروبية على البلدان العربية⁽¹⁰⁾.

8 - أما السبب المباشر للثورة فيتمثل في مقتل ضابط برتبة ملازم أول وهو "وانيرونر" (WEINBRENNER) نائب رئيس المكتب الغربي لمدينة البيض يوم 22 أفريل 1881، مع أربعة من حراسه حينما حاول إيقاف نشاط بوعمامة واعتقال مبعوثيه لدى الجرامة وهما الطيب بن الجرمانى ومرزوق السروري⁽¹¹⁾.

مراحل الثورة

بعد أن تضافرت تلك الأسباب و غيرها اندلعت الثورة. فقد أجبر الشيخ بوعمامة على إشعال فتيل الثورة حتى وإن كان ذلك قبل موسم الحصاد لأن الأهالي قد نفذ صبرهم حيث إلتمزوا بتعليمات الشيخ التي أبلغهم بها منذ بداية شهر أفريل والمتمثلة أساساً في جمع السلاح والذخيرة والمؤن، لأن ساعة الخلاص قد اقتربت.

وقد حذر العميل الخائن أحمد ولد القاضي باش آغا بفر ندة السلطات الفرنسية من تحركات بوعمامة منذ 15 أفريل 1881، حيث قدم إلى القائد العسكري بالناحية تقاريره التي تحتوي على أخبار بوعمامة التي جمعها من قبل عيونه المنتشرة حول زاويته.

ورغم ذلك فإن الحاكم العام الجنرال ألبير قريفي (A.GREY) لم يأمر بإيقاف الشيخ بوعمامة لأنه قد صرح من قبل بان عهد الثورات قد ولى في الجزائر⁽¹²⁾. وقد اطمأنت السلطات الفرنسية⁽¹³⁾ من جانب تحركات بوعمامة، ولكنه فاجأهم باندلاع الثورة والتي مرت بمرحلتين أساسيتين وهما:

أ - المرحلة الأولى : 1881- 1883

إستتفر الشيخ بوعمامة جميع القبائل الصحراوية بعد أن أرسل إليهم المبعوثين يحملون النفير ويدعوهم للتعبئة وحرص الإمكانيات كجمع المؤن وتهيئة السلاح والذخيرة ، وذلك عن طريق مقاديم الطريقة المنتشرين عبر كل من قبائل ترايف وورزانية والأحرار وفرندة وتيارت⁽¹⁴⁾. وقد وجدت هذه الدعوة صدها لدى قبائل عمور وحميان والشعانية، فضلا عن وعد أولاد سيدي الغرابة بارسال المدد والدعم أثناء قيام الثورة .

واستطاع الشيخ بوعمامة في وقت قصير أن يجمع حوالي ألفين وثلاثمائة (2300) جندي بين فرسان ومشاة⁽¹⁵⁾ موزعين كما يلي :

- 1 -قبائل طرايف 700 بين فارس و مشاة .
- 2 -أولاد زياد 180 بين فارس و مشاة .
- 3 -الحرار 160 بين فارس ومشاة.
- 4 -أولاد سيدي الشيخ (الغرابية) 250 بين فارس ومشاة.
- 5 -مغرار 100 بين فارس ومشاة .
- 6 -أولاد عمور 170 بين فارس ومشاة .
- 7 -أولاد سيدي التاج 50 بين فارس ومشاة .
- 8 -سكان القصور الجنوبية 500 من مشاة.
- 9 - من قبائل أخرى 190 بين فارس ومشاة⁽¹⁶⁾ .

اغتمم الشيخ بوعمامة فرصة غياب الجيش الفرنسي المرابط بالمناطق الوهرانية للمشاركة في الحملة على القطر التونسي

الشقيق (أفريل 1881)، فأعلن الجهاد المقدس ، وحث بعض القبائل على الجهاد و الانفصال عن السلطات الفرنسية ، وتم أول لقاء بين المجاهدين والقوات الاستعمارية يوم 27 أفريل 1881 بموقعة سفيسفة جنوب عين الصفراء، أسفرت المعركة على انهزام الجيش الفرنسي المدعم " بالقوم " وترك على الميدان خمسة قتلى منهم على الخصوص قائد المعاليف، وكذلك أخ القائد الساسي قائد الرزانية (17).

أسرعت السلطات العسكرية الفرنسية بتنظيم صفوفها وأرصدت طابورا في منطقة طافراوا ليواجه زحف الثورة خلال الأيام الأخيرة من شهر أفريل، ويضم هذا الطابور القوات المسلحة التالية :

1 -ثلاثة فيالق من المشاة (الأولى من الفرقة الثانية من الزواف والثانية من اللفييف الاجنبي والثالث من القسم الثاني رماة) تحت قيادة العقيد "سوينيه"(SWINEY) من الفرقة الثانية زواف .

2 -أربع سرايا من الفرقة الرابعة لقناصة إفريقييا تحت قيادة العقيد "إينوسنتي"(INNOCENTI) قائد هذا الفوج.

3 -فرقة مدفعية.

4 -فرق الخدمات المختلفة المساعدة .

5 - الفرق الثلاث من " قوم " سعيدة و فرندة و تيارت (1200 حصان)
(يقود الفرقتين الأوليتين الآغا قدور ولد عدة ويقود فرقة تيارت
الآغا الحاج قدور صحراوي .

وأخيرا قافلة من ألفين وخمسمائة جمل يقودها ستمائة جزائري،
وأخذ قيادة هذه الفرق الجنرال " كولينيون دانسي " (COLLIGNION)
(D'ANCY) قائد الشعبية العسكرية لمعسكر، إلا انه لم يحتفظ
بالقيادة إلا أياما قليلة نظرا لتدهور صحته ودخوله مستشفى
البيض يوم 9 ماي 1881، فعوضه العقيد " إينوسنتي " .

واصل الطابور سيره يوم 14 ماي متوجها نحو إقليم مفرار ، مركز
تجمع الثوار فوق الاحتدام الجاسم بين المجاهدين والقوات
الفرنسية يوم 19 ماي 1881 في معركة طاحنة بموقعة المويك وهو
ميدان فسيح يقدر عرضه بثلاثة كيلومترات ، متكون من تلين
متوازيين تقريبا ⁽¹⁸⁾ وهو يقع قرب قصور الشلالة بجبال
قصور ⁽¹⁹⁾ .

كانت معركة عنيفة إلتحمت فيها الصفوف واشتد القتال بين
الطرفين فتعالت أصوات الجيش الإسلامي بالتهليل والتكبير
ساهمت في زعزعة مقدمة العدو، وتخلخل مركزهم على الميدان
وتسرب إلى قلوبهم الرعب فاستغل الثوار هذا التفكك في تنظيمهم

العسكري ، وتحذوا المدفعية بإقدام وشجاعة كبيرين ، شل فعاليتها، فدبت الفوضى والذعر في صفوف الجيش الفرنسي فارتد على أعقابهم منهزماً ، وبذلك تمكن الثوار من افتكاك النصر رغم تفوق العدو عدداً وعدة⁽²⁰⁾.

وقد تضاربت التقارير العسكرية حول نتائج هذه المعركة وخسائر الفريقين فمنها ما تقول أن الثوار قد تركوا أكثر من ثلاثمائة قتيل في الميدان⁽²¹⁾ في حين تقول مصادر أخرى أن الخسائر الفرنسية قدرت بستين قتيلاً واثنين

وعشرين جريحاً مقابل مئتي شهيد⁽²²⁾ وقد قدرها العقيد اينوستي في تقريره إلى وزير الحربية الفرنسي بسبعة وثلاثين قتيلاً (37) وستة عشر جريحاً (16) من بينهم ضابط وأربعة مفقودين من الجانب الفرنسي ، في حين قدر عدد ضحايا الشيخ بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة (300) قتيل.

أما الجريدة الرسمية "المبشر" الصادرة بالفرنسية ، فقد علقت على هذه المعركة واعتبرتها انتصاراً للاحتلال الفرنسي ولكنها كلفتها سبعة وثلاثين قتيلاً وستة عشر جريحاً ، منهم الضابط "لانييري" (LANEYRIE)⁽²³⁾.

وبعد هذه المعركة عملت لسلطات الفرنسية على التقليل من شان بوعمامة وأتباعه، وكلفت قاضي البيض بإصدار فتوى تعتبر الثوار مجرد خارجين عن القانون، وقد رد عليه الشاعر الشعبي محمد بلخير فيما بعد بقصيدة طويلة نورد منها بعض الأبيات (24).

مقواني نبكي الجراح مهولين

بي فرقة وطني وعز الأوطان

رانا ضروك راس النجوع متزهين

ماقعدوا في الذل إلا أصحاب بوران

ألي يبغي الجنة يضاد الكافرين

والي بغي الهناء بغي التميزان

قولوا لعطاء الله واش كلفك ياحزين

ولاه تشمت في الي مالداهم قران

لعبت ببيك الدنيا أمها فانيين

ما أخيار أنتا وإلا كلاب رحمان

ويقول أيضا :

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيف

تبعما ما قال ربي في القرآن

وحنا فزنا على العب جيد والشريف

وافرح بينا الهاشمي شارع الأديان

مات منا حداث افراسين الحيف

متين ونصف بين كفرة وامزان

وحنا بينا الناس اتهترف اتهترف

واشوايعنا من الدزاير للسودان

-ثم يختم بالأبيات التالية :

إلي ما نافع النبي ما عنده نيف

محمد صاحب الشفاعة و الغفران

من علم العباد بأيام التعريف

فرض الصلاة و الزكاة وشهر رمضان

و الطامع فيك يا الله ما هوش اشخيف

كذا من حد تنصره يصبح سلطان

رجال الله من توات إلى سطيف

رضوا عن الشيخ سقام الفرسان

وهكذا أوضح الشاعر في هذه القصيدة أن المجاهدين أفضل وأشرف من الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي وحاربوا بجانب الضابط بوران خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864، كما عاتب الشاعر محمد بلخير قاضي البيض عطاء الله على ما صدر منه للحط من مكانة الشيخ بوعمامة وأتباعه، رغم أن الله سبحانه وتعالى والرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم مع المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لرفع راية الإسلام و تحرير الوطن لذلك قد بارك جهادهم وأصبح سلاحهم أقوى وأنجح من سلاح العدو، فكتب لهم النصر ولم يستشهد إلا إحدى عشر فارسا، بينما العدو قتل منه أكثر من مائتي (200) كافر وخائن، وهذا بفضل الله ورضوانه عن الشيخ وبركة رجال الله من توات إلى سطيف.

ويظهر من هذه القصيدة أيضا أن معنويات المجاهدين مرتفعة، وأنهم قد انتصروا في معاركهم ضد الكفار، بينما اعتبرت فرنسا معركة "المويلك" هزيمة لبوعمامة وانتصار للجيش الفرنسي الذي انتقم لاغتيال الملازم "وانبرونر" من جهة ودعم نفوذه في الجنوب الوهراني من جهة أخرى .

وتوصلت القوات الفرنسية إلى هذه النتائج حسب زعمها إلى الدور البارز الذي قام به الجنرال "سيري" (CEREZ) ❖ قائد الناحية الوهرانية حيث نظم أربع طوابير للحفاظ على المناطق التالية من الناحية الوهرانية ودفع بطابور سعيدة داخل الأهالي المتمردين ، كما أشادت السلطات الفرنسية أيضا بدور العقيد " إينوسنتي " وجنوده الذين تلقوا التهنة والتتويه من قبل وزير الحربية ورئيس الجمهورية .⁽²⁵⁾

ولكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس ما جاء في التقارير العسكرية الفرنسية، ذلك أن هذه الموقعة تعتبر انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة ويتفاداه كلما أمكن ذلك وأن العقيد " إينوسنتي " قد أرغم بعد المعركة إلى التوجه نحو الشمال أي إلى خيضر هروبا من بوعمامة ، ويظهر أن عزله -فيما بعد - كان بسبب هزيمته أمام بوعمامة.

ظل بوعمامة طيلة هذه المدة سيد الموقف وقد توجه إلى الأبيض سيدي الشيخ للاستعداد و التهيئة للمسيرة الطويلة التي حيرت الجيش الفرنسي وجعلته يتيه في تلك الفياض بدون دليل. وقد نسج حول هذه المسيرة الكثير من الأساطير والغيبيات ، مثل أن " بركة سيدي الشيخ بوعمامة جعلته يسبق القوات الفرنسية، ويمر بجانبها أحيانا ولم تره، ودامت هذه المسيرة حوالي ثلاثة وعشرون يوما من 30 ماي إلى 21 جوان 1881 ، وكانت هذه المسيرة نحو الشمال مرورا بالببيض وستيتن ثم سيدي عبد الرحمان و عيون البرانس ليعود ثانية إلى بوسمعون في الجنوب قاطعا الخط الرابط بين بوقطوب المشرية عين الصفراء ، وقطع خلالها ما يقارب السبعمئة وثلاثين (730) كلم ، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه و عرقلة مسيرته ولكنها لن تستطع إيقافه أو مواجهته وهذا خلافا لما روجته الأوساط الاستعمارية بأنها تره، وهذا غير معقول إذ كيف يمكن لجيش جرار يمر بجانب العدو دون أن يراه أو يسمع ضجيجيه ؟ .

قام الثوار خلال هذه المسيرة بقطع خطوط التلغراف الرابط بين فرنده والببيض⁽²⁶⁾ ومهاجمة مراكز الشركة الفرنسية -الجزائرية للحلفاء، وقتل العديد من العمال الأسبان الذين يشتغلون بهذه الشركة، كما أحرقوا واتفوا الكثير من العتاد⁽²⁷⁾ وذلك من أجل تقويض أركان الاستعمار واستغلاله لخيرات البلاد بكل نهم

كما استولوا أيضا على قطعان كثيرة لبعض القبائل الموالية للفرنسيين، ولذلك إتخذت السلطات العليا الفرنسية إجراءات حازمة وسريعة من أجل حماية المناطق التالية من الثوار الزاحفين نحو الشمال فركزت أربعة طوابير قوية في النقاط التالية :

- رأس الماء (العقيد " جانين " JANIN)
- خضير (العقيد " زويناي " ZWINEY)..
- تيارت (لعقيد " برونثير " BRUNETIERE).
- البيض (النقيب " تاديو " TADIEU في انتظار وصول العقيد " دي نيقرييه " DE NEGRIER)

فرصدت فرقة العقيد برونثير لحراسة عين مدريسة ، كما غادر الجنرال "ديتري" (DETRY) يوم 4 جوان 1881 خضير مع فرقة " اينوسنتي " سابقا بعد تنظيمها من جديد لتصل يوم 7 إلى خضراء ويوم 9 إلى الترف وهو يلاحق بوعمامة ، ولم يتمكن في هذا التاريخ من الوصول إليه ، وقد كلف العقيد " ملاريه " (MALARIET) بحراسة ممر خضير ، أما طابور جانين فمهمته المحافظة على المنطقة الممتدة ما بين بوقرن و العريشة .⁽²⁹⁾

و الجدير بالذكر أن انتصارات بوعمامة جعلت عدة قبائل من المنطقة تنضم إليه الواحدة تلو الأخرى منها قبائل الاغواط الأكسل ❖و التي وضعتها فرنسا تحت قيادة الدين العموري أغا آفلو ، فثارت وحاولت الانضمام إلى الثورة لتشارك في هجوم فرنده مع بوعمامة ، لكنها تعرضت لهجوم من طرف قوم أحرار تيارت بقيادة الآغا الحاج قدور الصحراوي يوم 14 جوان 1881 بواد خروف ، فاضطرت إلى الرجوع على أعقابها فتعرضت مرة أخرى يوم 16 جوان إلى هجوم قبائل أرباع الأغواط تحت قيادة سي باحوس بن قدور ، المدعم من طرف الرائد " بولان " (BELIN) مع أربع فرق خيالة فكانت معركة خسر فيها الأغواط الأكسل مائة وخمسة (105) قتيلًا. واشتهرت هذه الواقعة الشنعاء بين الأشقاء بموقعة " قارة الغشوي" والتي تقع على بعد عشرين كيلو مترا شمال شرق ستيتن.

هذا وقد دون الشاعر محمد بلخير وقائع هذه المعركة في قصيدة من الشعر الملحون (الشعبي) منها :

دبر علي يا صاحب التدبير

ديرلي في القسمة الوافية عودي

يوم في قارة الغشوي نهار كبير

كاملين ثلث ضربات في عودي

ضرب نطح من الركبة لحد الدير

عادم بالجراح باليمنى يردي⁽³⁰⁾

هكذا التجأت السلطات الفرنسية إلى استعمال جميع الوسائل لتحطيم الثورة كتحرير القبائل و الاعراش فيما بينها ، كما سارعت بإرجاع جزء من قواتها التي اشتركت في احتلال تونس ، واضطرت أيضا إلى التعجيل بإكمال الخط الحديدي بين أرزيو - سعيدة لنقل المؤن لسعيدة وفرندة وتيارت و البيض .

ورغم هذه التحركات والاستعدادات فإن الشيخ بوعمامة بقي سيد الموقف طيلة فصل الصيف الحار جدا ، واكتفى الفرنسيون بالدفاع فقط .

ولمواجهة انتصارات بوعمامة المتتالية ، قامت السلطات الفرنسية بتحركات سريعة تمثلت في إرسال قوات نحو الجنوب الغربي من أجل تطويق الثورة و القضاء عليها وبالتالي التوسع في المنطقة وبسط نفوذها على كل قصور الجنوب الغربي الجزائري ورمز لهذه القوات بالحروف أ - ب - ج وهي :

-القوة الأولى (أ): كانت تحت قيادة الضابط " لويس (LOUIS) حاكم تلمسان ، مشكلة من :

- 1 - بطرية من المدفعية من ست قطع.
- 2 - ثلاثة سرايا من الفرسان.
- 3 - فرقة من " القوم " مكونة من ثلاثمائة (300) فارس من قطاع تلمسان.

- 4 - ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للزواف.
- 5 - ثلاثة آلاف جمل محملة بالمؤن و الذخيرة .

-القوة الثانية (ب): كانت تحت قيادة الجنرال " كلونيو " COLONIEU ومكونة من :

- 1 - بطرية من أربع قطع.
- 2 - أربع فرق من الفرسان.
- 3 -فرقة من القوم " مكونة من أربعمئة (400) فارس من قطاع معسكر.

- 4 - مجموعات من المشاة.
- 5 - مئتان وخمسون (250) جمل محمل بالذخيرة و المئون.
- القوة الثالثة (ج) : كنت تحت قيادة العقيد " دي نيرقييه " ومتكونة من :
- 1 - بطرية مكونة من ست قطع.
- 2 - فرقتان من الفرسان.
- 3 - فرقة من " القوم " تعدادها ثلاثمائة (300) فارس من قطاع البيض.
- 4 - ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للفياف الأجنبي .
- 5 - ثلاثمائة (300) جمل محملة بالمئون و الذخيرة.⁽³¹⁾
- وقد كلف العقيد " دي نيرقييه " بمهمة معاقبة القبائل التي شاكرت في الثورة ، ونسف زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بقرية الأبيض سيدي الشيخ ، وقبل وصوله إلى هذا الهدف كانت قوته قد اقتربت أعمالا إجرامية بشعة ضد السكان العزل خاصة أهالي الطرايف بضواحي البيض ، وأهالي الربوات وذلك يوم 9 أوت وهجم أيضا على سكان الشلالة الظهرانية وطلب من قائدهم

تسليم كل الذين شاركوا في معركة " المويلك " للانتقام منهم ومصادرة أسلحتهم من بنادق ومسدسات وسيوف.

وفي 15 أوت 1881 وصلت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد " دي نيجرييه " إلى قصور الأبيض سيدي الشيخ الأربعة حيث قام بأعمال شنيعة يندي لها جبين الإنسانية، فقد وصل به البغض والاستهتار والعجرفة إلى تفجير قبة سيدي الشيخ ⁽³²⁾ كلية ونش قبره الذي مر عليه حوالي قرنين ونصف. وكان يهدف من وراء ذلك الاستهزاء من الرموز الروحية التي تدفع وتحث السكان على الثورة والمقاومة والدفاع عن حمى الوطن والدين ، وتشجيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسية لهم .

كذلك الانتقام من ثورة بوعمامة ومناصريه و تخويف الأهالي من مغبة التمرد والانفعال والالتحاق بالثورة. وعند انتهائه من تدمير الزاوية قام بحرق القصور الأربعة بما فيها من زرع ونخيل ونازل ودواب وغير ذلك .

وبعد هذه العمليات الانتقامية قام الضابط " دي نيجرييه " بالالتحاق بالقوة الأولى والثانية بالمكان الذي اتفق عليه وهو منطقة عين الصفراء .

وكانت مهمة هذه القوات مراقبة الخطوط الرابطة بين مناطق الأطلس الصحراوي و القصور الجنوبية الغربية ومحاولة إخضاعها لنفوذ الاحتلال الفرنسي وبهذا يحاول أن ينفذ إلى الصحراء .

وقد طالب الجنرال " سوسييه " ❖(SAUSSIER) قائد الفيلق التاسع عشر في رسالة وجهها إلى وزير الحربية بباريس بتاريخ 18 جويلية 1881 المزيد من المدد والدعم حتى يطمئن السكان لقوة الاحتلال الفرنسي ، حيث اقترح الإجراءات التالية :

- 1 - تدعيم حامية البيض بكتيبة و ساريتين تحت قيادة العقيد " دي نيقرييه " لمضايقة العدو .
- 2 - السيطرة على مركز المشرية لما به من إمكانيات هامة كالماء و الخشب (الغابات) .
- 3 - بالإضافة إلى المراكز الأمامية بسعيدة وفرندة وعين مدريسة للتموين (1).

وهكذا يظهر أن القوات الفرنسية، لم تتمكن من السيطرة على الموقف في هذه المرحلة من الثورة، وبقيت تنتظر انخفاض درجة الحرارة خلال فصلي الخريف والشتاء، لتتمكن من الهجوم

واسترداد نفوذها على المنطقة ، ذلك أن الجنرال " سوسيه " قد أرسل إلى الجنرال " دليباك " (DELEBECQUE) قائد ناحية وهران ، رسالة يطلب فيها التعليمات اللازمة للمرحلة القادمة لمواجهة أولاد سيدي الشيخ و المحافظة على المناطق التلية .⁽³³⁾

كما راسل أيضا وزير الحربية بباريس "فار" (FARRE) بتاريخ 4 سبتمبر 1881 وذلك من أجل الإجابة السريعة على برقيته المؤرخة في 31 أوت وهذا بعدما اعلمه من مراسلة الجنرال " دليباك " ومشاريعه لتونس: كذلك إعلام الوزير بإمكانية مقاطعة الجزائر حول إرسال فرقة عسكرية إلى الجنوب ، كما لفت انتباه الوزير في هذه الرسالة حول قضية فيقيق واعتصام الثوار بها ووجوب ملاحقتهم داخل ما يسمى بالتراب المغربي من طرف فرقة " دليباك " ⁽³⁴⁾

ففي شهري سبتمبر وأكتوبر تعرض لواء الجنرال " كولونيو " (COLONIEU) ، ولواء " لويس " (LOUIS) وغيرها من القوات الفرنسية إلى هجوم للثوار قرب عين الصفراء خلف العديد من القتلى والجرحى من الطرفين .

كما قامت قوة " لويس " بمهمة تحطيم قصري بوعمامة وهما قصر مغرار الفوقاتي ومغرار التحتاني اللذان يبعدان عن بعضهما بمسافة تقدر بـ 12 كلم، وقد احرق القصرين قامت الفرق

العسكرية الفرنسية تحت قيادة الجنرال " دليباك " بالهجوم على السكان العزل في منطقة عمور ، فقتلت العديد منهم وأحرقت خيامهم وأتلفت ذخائرهم ونهبت مواشيهم ، ثم أرغمتهم على النزول من هذه المناطق الحصينة إلى سهل الفجة لتبقى تحت مراقبة لواء الجنرال " كولونيو " بحجة أنها قد طلبت الأمن والخضوع للسلطات الفرنسية⁽³⁵⁾.

ومن التطورات الهامة التي حصلت خلال هذه الفترة انضمام سي سليمان بن حمزة رئيس وزعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابية إلى حركة بوعمامة على رأس ثلاثمائة فارس ، واتجه مع رجاله إلى جنوب غرب عين الصفراء ثم إلى المنطقة البكاكرة الحميانيين ومن هناك غادر المنقب يوم 16 نوفمبر إلى جبل عمران ليمارس الضغط و الإرهاب والعنف على القبائل الموالية للاحتلال الفرنسي ، فأرغمت القوات الفرنسية على حماية مناصريها واضطرت أن تلاحق سي سليمان مع قواته خلال الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر وكل شهر ديسمبر، كما ركزت السلطات الفرنسية قواتها في عين الصفراء،وعين خليل والعريشة، ورأس الماء، ومشرية، والبيض، وسبدو، والضاية، وسعيدة وخيثر، وفرندة، لوضع شبه حاجز لحماية التل الوهراني .

وإزاء هذه الحشود الفرنسية ازداد الضغط على الثورة فاضطر الشيخ بوعمامة إلى الانسحاب متجها إلى منطقة فيقيق داخل المغرب الأقصى، فقل نشاطه وتشتت أتباعه وأنصاره⁽³⁶⁾.

فانضم البعض منهم إلى سي قدور بن حمزة رئيس أولاد سيدي الشيخ الشراقة، و الذي ما زال يقاوم توسع الاحتلال الفرنسي في الجزائر، والبعض الآخر انضوى تحت قيادة سي سليمان رئيس الغرابة لحمل مشعل الثورة، وجزء ثالث من المجاهدين رابطوا بفيقيق ونواحيها .

بقيت فرنسا خلال سنة 1882 تلاحق جيوب الثورة ، وتعاقب القبائل التي وقفت في وجه توسعها وأزرت الشيخ بوعمامة في الكفاح، كما لاحقت بوعمامة نفسه في فيقيق، والذي رد بدون عليهم بهجوم عنيف يوم 16 افريل 1882 في شط تقري ، ضد البعثة التوبوغرافية لرسم الخرائط العسكرية، و التي كانت محاطة بحماية عسكرية ضخمة ،ووقعت ملحمة كبيرة سقط على أثرها العديد من القتلى وتكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والعتاد ،ولم يتمكن الجيش الفرنسي من الانسحاب إلا بصعوبة كبيرة .وقد خلدت السلطات الفرنسية هذه المعركة بنصب تذكاري لضحاياها وخاصة النقيب " باربيه " (BARBIER)و الملازم " ماسون " (MASSONE) في سفح جبل عنترقرب المشرية .⁽³⁷⁾

كان لهذه الهزيمة وقع كبير في الأوساط الاستعمارية وخاصة العسكرية منها التي منيت بالفشل الذريع أمام صمود ثورة بوعمامة التي أظهرت تفوقها مرة أخرى على القوات الفرنسية .

وبعد ذلك عملت فرنسا على استمالة أولاد سيدي الشيخ إليها وتفاوضت مع سي قدور بن حمزة عن طريق بوحفص لغواطي وتم الاتفاق بين الطرفين في شهر ماي 1883 ، وينص هذا الاتفاق على الأمور التالية :

أولا : أن تقوم السلطات الفرنسية بتجديد بناء ضريح سيدي الشيخ الذي نسفه القائد العسكري " دي نيقرييه " في أوت 1881.

ثانيا : أن تقدم السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنك لسي قدور بن حمزة وأفراد عائلته عما صودر منهم عام 1864.

ثالثا : تعيين سي قدور رأس قيادة كبيرة بالبليض وتعيين عدد من أفراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابعا : يقوم سي قدور عائلته بإقناع كل أفراد عائلة وأولاد سيدي الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة إلى الجزائر .⁽³⁸⁾

وفعلا، فقد تم تطبيق هذا الاتفاق، وأعيد بناء ضريح سيدي الشيخ، ثم رجع سي الدين بن حمزة وابن أخيه سي حمزة بن بوبكر ومعهما عائلة أولاد سيدي الشيخ، وكثير من قدماء المجاهدين ليستقروا كلهم في التراب الجزائري⁽³⁹⁾. وما من شك أن هذا الاجراء كان يهدف إلى عزل الشيخ بوعمامة وإفشال ثورته التي وقفت كحاجز صلب يمنع تسرب الاحتلال الفرنسي إلى الجنوب الجزائري .

ولكن الشاعر محمد بلخير، ورفيق الشيخ بوعمامة في الكفاح يبين في قصيدة طويلة ، تشبث الأهالي ببوعمامة لمواصلة الكفاح ،
نورد منها بعض المقتطفات :

يا الفارس حشمتك عيد الأخبار

واش حال القرمي رايس القوم

اليانك من البيض فرحة و الأشبار

الشيخ اتبنى ومازال مهدوم

هدموا قنطاس الهمة والاقوار

ولا بقى حد على السلطان معكوم

ثم يقول:

كان شي من الأبطال وأولاد بكار

لا تخلو نجع السلطان مقسوم

بوعمامة مولى سطوة وزير

واباه بين كتاب النبي المعصوم

بوعمامة يعطي تسبيح الذكر

وبوعمامة سره للناس مقهوم

أنت مرافقي في صحراء وقفار

وشاد عود علامك بيدي به محروم

ثم يختم القصيدة بما يلي :

راه ربي شاهد باللي نخلف الثار

أو عارف القلب اللي من خوه مهموم

لو أنصيب نجي لك كالجار للجار

أو تفارقني في اليقظة مع النوم

-المرحلة الثانية من ثورة بوعمامة (1883 -1908):

ساد الثورة خلال هذه المرحلة (ما بين 1883 و 1908) فتور لم تشهده من قبل، فقد استقر الشيخ بوعمامة بمسقط رأسه الحمام الفوقاني بيقيق التي وصلها في شهر جويلية 1883⁽⁴¹⁾ ليفكر في إعادة تنظيم ثورته للمرحلة القادمة، لذلك تخوفت السلطات الفرنسية من هذا التحرك، وبعث الجنرال "سوسييه" قائد الفيلق التاسع عشر ببرقية إلى حكومة بباريس، يدعوها فيها بأن تضغط على السلطان المغربي ليطرد بوعمامة من هذه المنطقة لأنه يشكل خطرا دائما على الاستعمار الفرنسي في الجنوب الوهراني⁽⁴²⁾، لذلك غادر بوعمامة فيقيق، ولجأ إلى واحات إقليم توات، واحتفى بسكان واحة دلدول بمقاطعة تيقورارين (قورارة) مع نهاية سنة 1883 واستقر هناك إلى غاية سنة 1894، إذ قام بتأسيس زاوية هناك، وشرع في تنظيم دروس دينية ليكسب أنصارا وأتباعا جدد ليواصل بهم الجهاد، ويوقف زحف التوسع الاستعماري في الجزائر، كما قام بمراسلة مختلف القبائل الصحراوية من أقصى شرق الصحراء إلى غربها يحثهم على الجهاد. كما قام بتحركات سياسية تمثلت في مراسلة الحكام العسكريين الفرنسيين مثل رسالة بوعمامة إلى الحاكم العسكري لدائرة غرداية يوم 26 أفريل 1888⁽⁴³⁾ يحثه

فيها على أن يسلك طريق السلم والأمن والصلح بينهما .وفي نفس الوقت راسل سي قدور بن حمزة زعيم لأولاد سيدي الشيخ الشراقة (44) يحذره من مغبة دسائس وتحركات المصالح الفرنسية لزرع الشقاق والعداوة بين المسلمين وداخل القبائل بالمغرب الأقصى، والجزائر ويحثه على عدم التعامل مع الكفار .

وكان لهذا النشاط صدى واسعا لدى القبائل الصحراوية وخاصة قبائل التوارق، الذين اقترحوا عليه الانتقال إليهم لتعاونوا فيما بينهم للجهد ومقاومة زحف الاحتلال العسكري لوطنهم كذلك آزرته وانضمت إليه بعض القبائل المقيمة على الحدود الجزائرية -المغربية منها على الخصوص ذوي منيع وأولاد جرير.

وفي نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية تعمل على استقرار الوضع في المنطقة ،بتثبيت السكان و خاصة الموالين لأولاد سيدي الشيخ، وذلك بعد نجاح الجنرال " توماسين " (Thomassin) في مصالحة هذه العائلة الدينية، من أجل أن يسهل عليها الانتقال إلى أبعد من السهول العليا الغربية وتمديد نفوذها إلى أقصى الجنوب، وكذلك إنها حالة الحرب و الانتفاضات الدائمة التي دامت حوالي عشرين سنة (45) .

كما عملت أيضا على إعطاء السكان الصحراويين، نوعا من الاستقلال الذاتي، قوة هائلة تعتمد عليها في الاستيلاء على الصحراء بل تكون منهم قوات سريعة الحركة، تشابه حركة الثوار، وتمتاز أيضا بحسن التنظيم وقوة الأسلحة الحديثة، والدعم المادي، فضلا عن قدراتهم القتالية، وسوف تكون هذه الأداة الجديدة الفعالة في أيدي السلطات الاستعمارية لتتوسع بها في الصحراء⁽⁴⁶⁾.

واهتمت الإدارة الفرنسية منذ سنة 1884، بإنجاز العديد من المشاريع بعد أن تحصلت على مساعدات مالية من مجلس النواب الفرنسي، من أجل تثبيت أقدامها في المنطقة، وهذا بعد أن ألحقت منطقة ميزاب بنفوذها⁽⁴⁷⁾ وإيصال الخط الحديدي إلى عين الصفراء. كما عملت على شق الطرق، وإقامة الجسور وربط المناطق الجنوبية الغربية ببعضها البعض ، حتى يسهل عليها التنقل بسرعة في حالة ما إذا قاومها السكان .

كما عملت السلطات الفرنسية على زرع الحصون و المركز العسكرية في مختلف المناطق بعد أن تبين لها أن حاميات البيض والأغواط وغرداية غير قادرة على حماية المناطق الجنوبية الشاسعة والتمردة⁽⁴⁸⁾ فقرر الجنرال " دليباك " في شهر مارس 1885، إقامة مركز محصن بجنان بورزق، وحراسة الواحات المغربية ، لذلك تم

احتلاله بصفة نهائية في شهر جويلية 1885 ، لهذا قرر إعطاء دفعة جديدة لمركز عين الصفراء بربطه بالخط الحديدي الذي وصله 1887⁽⁴⁹⁾ ثم بناء حصن القليعة عام 1888 وكل ذلك من أجل مراقبة المناطق الحدودية، ورصد تحركات الشيخ بوعمامة الذي اتفق واتحد مع شريف مد أغا بوادي قير ليعملا سويا على تحريض وتأييب سكان الجنوب الوهراني وعشائر بني قير وأولاد جرير⁽⁵⁰⁾ ضد الوجود الفرنسي بالمنطقة .

لقد استعمل الاستعمار الفرنسي أساليب متعددة للاحتلال، فمنذ سنة 1889، لاحت في الأفق فكرة جديدة ،وهي احتلال الصحراء بالطرق السلمية الهادئة، وذلك بإقامة المؤسسات الاقتصادية وإنشاء المراكز التجارية في كل من توات وتيديكلت⁽⁵¹⁾، حتى تدخل هذه المناطق في قيود التبعية الاقتصادية للاستعمار، كما بدأت تكشف من دراساتها لهذه مناطق للتعرف على جوانبها البشرية والجغرافية والمائية والاقتصادية، وقد أرسل في هذا الإطار الأستاذ "فلامون" (FLAMAND) لإتمام أبحاثه ودراساته حول الجنوب .

لكن فرنسا لم تتخل عن أسلوبها العسكري العنيف في التوسع، فأنشأت في سنة 1891 مركزا عسكريا دائما بالمنطقة استعدادا للسطو على عين صالح ووحدات توات، التي وصفها الوالي العام للجزائر " جول قابون " (JULES GABON): "إنها ملجأ للثوار ،

ولبوعمامة الذي التجأ إليها بحثا عن المساعدة وتأليب القبائل ضدنا"، كما عملت السلطات الفرنسية على استمالة سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ ليساعدها على احتلال هذه الواحات (52) .

ولكن بوعمامة ما فتئ يكسب الأنصار ويحظى بثقة سكان الصحراء ويحوز على تأييدهم باعتباره قطبا ريانيا صالحا ، مما جعل كل من السلطات الفرنسية والحكومة المغربية تعملان على اكتسابه إلى صفها ، فتجددت محاولات فرنسا الاتصال به عن طريق المفوضية الفرنسية بطنجة سنة 1892 للتفاوض حول قضية "الأمان"❖ولكن بدون جدوى (53) .

ويظهر أن التنافس عليه بين الدولتين، المغربية والفرنسية يدخل ضمن سياسة كل منها تجاه المناطق الصحراوية، فبينما كانت السلطات الفرنسية تسعى إلى استمالة الشيخ بوعمامة إلى جانبها حتى يفسح لها الطريق نحو التوسع بالصحراء، كان العرش المغربي يسعى إلى تدعيمه باعتباره مدافعا عن مجالها عبر هذه المناطق ضد الفرنسيين باسم البلاط المغربي .

لهذا عرضت الحكومة المغربية على الشيخ بوعمامة الانتقال إلى الشمال والاستقرار بناحية فيقيق والمكوث بالقرب من زاويته

بمغرار ، فأصبح الشيخ بذلك بين ثلاث اختيارات هي: الأمان أو الانتقال إلى الشمال أو البقاء في مكانه تلبية لرغبة أهل قورارة .

واستطاع بوعمامة ان يوفق بين الأمور الثلاث، فرد على " الأمان " برسالة ضمنها شروطه⁽⁵⁴⁾ الذي يعرف أنها مرفوضة، كما بدأ يتقرب من السلطان المغربي باعتباره أقرب سلطة شرعية إسلامية في المنطقة وفي نفس الوقت بدأ في تهيئة الأرضية التي سينتقل منها إلى الشمال، نظرا لصعوبة المهمة وتشعب ارتباطاته، فكان التنقل بكل حذر بطيء استغرق حوالي أربع سنوات ظل يراوح فيها ما بين العرق الغربي الكبير ووادي الساورة.

تشير الوثائق الفرنسية بان بوعمامة استقر خلال 1895 بعرق مقيمين وقد رفض أن يمكث بين كل من زوا الغرابة وأولاد جرير وذوي منيع، وأنه مازال يرتاب في نوايا سي قدور بن حمزة وان الطوارق وشعانية الشرق تزوره باستمرار بمقيمين كما أنه طالب عن طريق رسالة وجهها إلى الجنرال قائد الشعبة العسكرية لعين الصفراء السماح له بأن يرسل قافلة لتتمون من الأسواق الواقعة تحت النفوذ الفرنسي⁽⁵⁵⁾.

ثم استقر أخيرا بالعوج التحتاني في 26 ماي 1896 على حافة وادي زوزفانة قرب منطقة فيقيق⁽⁵⁶⁾. ليتمكن من جمع إمكانياته ورص

صفوفه ، ويستقبل الوفود التي لبث دعوة الجهاد ، كما كان يعمل على تنقية الأجواء بين العشائر المتعادية و المتنافرة وأبعاد العناصر المشوشة لتطهير حركته الجهادية .

وفعلا فقد أبعد بوعمامة العديد عناصر الشعابنة رغم شجاعتهم وقدراتهم القتالية ، ولم يبق منهم إلا بعض الخيم ، ونظم صفوف جيشه الذي أصبح يتكون مما يلي⁽⁵⁷⁾ :

تسمية	فرسان	مشاة	مهري	ملاحظات
زاوية بوعمامة	50	60	=	حوالي
أولاد جريز	250	700		=
أولاد قطيب	20	40		=
ذوي منيع	15	60		=
ززا الغرابية	65	100		=
الشعابنة	20	170	95	=
المجموع	420	1130	95	

لا شك أن هذه القوة لا بأس بها في ذلك الوقت زادت من دعم الموقف العسكري للشيخ بوعمامة الذي عزز موقفه السياسي أيضا بزيارة الوفود الرسمية له... كزيارة شخصين له حاملين إليه رسالة من سلطان القسطنطينية و حامي الحرمين الشريفين، زمن سلطان المغرب مولاي عبد العزيز، ومن حاكم تافيلالت مولاي الرشيد، يعبرون له فيها عن اعتبارهم له خلقا للخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) واعترافهم به كشيخ شيوخ للمنطقة الصحراوية (58)»

وبذلك اطمأن الشيخ بوعمامة لنوايا السلطان المغربي فرجع إلى مسقط رأسه بفيقيق خلال شهر سبتمبر 1896 ويظهر أن هذا التقارب قد أثار قلق ومخاوف السلطات الفرنسية خاصة بعد الاعتراف به كزعيم لأولاد سيدي الشيخ وكمشرف على المنطقة الصحراوية وهو بذلك يعتبر سدا منيعا في وجه سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء..

لذلك حاولت السلطات الفرنسية كسب ود الشيخ بوعمامة عله يساعدها في بسط نفوذها على الصحراء فقرّر الوالي العام "لافريار (LAFERRIERE) يوم 16 أكتوبر 1899 منح الشيخ بوعمامة الأمان التام بدون أي شرط أو قيد (59). وذلك حتى يتمكن من إتمام مشاريعه الاستعمارية في منطقة زوزفانة وإنجاز محطة جنان بورزق

كآخر نقطة للخط الحديدي بالجنوب وهذا بعدها تلقى التعليمات اللازمة لذلك من وزارة الحربية بباريس -أركان الجيش - المكتب الرابع.⁽⁶⁰⁾

وبعد تبادل الرسائل بين الطرفين أعرب الوالي العام السيد " لافريار " عن رغبته في اللقاء بالشيخ بوعمامة خلالا جانفي 1900 بمناسبة تدشين الخط الحديدي الرابط ما بين عين الصفراء - جنان بورزق وكذلك المحطة النهائية للقطار وذلك يوم أول فيفري 1900⁽⁶¹⁾ وقد رفض بوعمامة هذه المقابلة. ويظهر أنه لم يثق بعد في سياسة فرنسا ومازال يرتاب في نواياها المبيتة لأن همها الوحيد هو ترسيخ أقدامها في المنطقة. ورغم ذلك يمكن أن نلاحظ أن الشيخ بوعمامة قد ساير سياسة فرنسا بكل حذر وحاول جس نبض السلطات الفرنسية والتقرب منها خلال الرسائل العديدة المتبادلة بينهما .

وبعد هذا التاريخ دخل بوعمامة المغرب واشتغل بمشاكل وقضايا داخلية بالمغرب، وانتقل إلى الشمال بعمالة وجدة، مما جعل الدوائر الاستعمارية في الجزائر تتنفس الصعداء، بتخلصها من أشد أعدائها الذي وقف في وجهها حوالي ربع قرن وترك لها المجال واسعا للتوغل في أعماق الصحراء .

وطيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ بوعمامة قضاها في الجهاد تارة وفي الهدوء تارة أخرى وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال " ليوتي " (LYAUTY).

وأخيرا التجأ الشيخ بوعمامة إلى ضواحي وجدة بعين سيدي ملوك حيث وافته المنية في السابع من أكتوبر 1908 (رحمه الله)، ودفن هناك وهو اليوم ينتظر عودة رفاتهِ الطاهرة إلى أرض الوطن ليجاور زملاءه الأبطال بالعالية وما ذلك بعزيز عن الجزائر .

نتاج ثورة بوعمامة

ترتبت عن هذه الثورة عدة نتائج وحقائق يمكن إثبات بعضها في النقاط التالية:

1 - نعتبر ثورة بوعمامة من أعنف الثورات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر -بعد ثورة الأمير عبد القادر - وأطولها من 1881 إلى 1908. وبها ختمت مرحلة المقاومة الشعبية في تاريخ الجزائر الجهادي، فأوقف جور البندقية ليحل محلها أسلوب البعث الحضاري والوعي الفكري، ضمن النضال السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية .

2 - امتازت شخصية بوعمامة في هذه المرحلة ، بالشجاعة و الإقدام والتحدي في مواجهة القوات الفرنسية ، حيث تفتقت مواهبه الحربية، وقدراته القتالية، كالتفطن لمكائد الأعداء وتفهم العمليات العسكرية، مما جعله ينتصر على أشهر جنرالات فرنسا و المتخرجين من أكبر المدارس العسكرية، فضلا عن خبراتهم الميدانية وتجاربهم الحربية ، فقد هزمهم جميعا ولم يتمكنوا من القبض عليه أبدا لهذا يحق له اليوم أن نمنحه أسمى الرتب العسكرية تقديرا لانتصاراته.

3 - إنطلقت الثورة من الزاوية باعتبار الشيخ بوعمامة زعيما دينيا وقطبا ربانيا اشتهر بالورع والتقوى وحب وطنه وشعبه ، فكانت حركته دينية سياسية و العمل على جمع كلمة المسلمين كصف واحد لدحض الاستعمار و الاستغلال و الاستبعاد.

4 - لقد أظهرت ثورة بوعمامة تحديا كبيرا لسياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة ، والتي كانت تهدف إلى إتمام عمليات الاحتلال الشامل والكامل للبلاد وجعل الجزائر -ولاسيما جنوبها -همزة وصل للتوسع .

5 - غلب على المرحلة الثانية من الثورة (1883 -1908) الطابع السياسي و طغت عليها قضية الأمان من خلال المراسلات

والمفاوضات بين الشيخ بوعمامة والأوساط الفرنسية، واستطاع بذلك أن يكسب الدعم المادي والمعنوي عند مختلف القبائل زادت من تقوية نفوذه ومركزه، جعلت القوات الفرنسية عاجزة على النيل منه رغم مساعدة بعض الخونة لها .

6 - لقد ترتب عن عمليات التوسع الاستعماري في الجنوب الوهراني عدة نتائج اقتصادية معتبرة، حيث أن الحوادث خلال الثورة قد انجرت عنها خسائر بشرية ومادية جسيمة لما تعرضت له المنشآت الاقتصادية للمعمرين في الهضاب العليا إلى تخريبات واتلافات ذكرتها عدة وثائق أرشيفية للمصالح الاستعمارية للإثبات .

- عجلت الثورة بإتمام مشاريع السكة الحديدية في المنطقة وربط الشمال الغربي الجزائري بجنوبه، لأنها وسيلة سهلة وسريعة للمبادلات . كما أنها تساعد قوات الاحتلال بالتحرك في التدخلات نحو الجنوب ونجدة وتدعيم الحاميات المزروعة هنا وهناك .

8 - وأخرا يمكن إقرار الحقائق التالية وهي أن الثورة لم تحقق أهدافها، لأنها تعرضت لعدة عقبات جعلتها تتعثر وفاترة في بعض الأوقات نظرا لعدم اتحاد فرعي أولاد سيدي الشيخ وكذلك ضغوط السلطات عبد العزيز على الثورة وحصرها في الحدود ورغم ذلك فإن هذه الثورة قد كتبت صفحة خالدة من تاريخ المقاومة

الوطنية الجزائرية، ويمكن أن نقول أنها وضعت اللبنة الأولى في تشييد حرية البلاد والعباد.

المراجع

- 1-Augustin Bernard, « Bou-Amama », in question diplomatique et coloniale, 5^e année, 1901, tome 11, p 622.
- 2-Bezy (le citoyen) , Insurrection du Sud Oranais, Oran, 1881 ,p10
- 3- E. Graulle, Insurrection de Bou-Amama, avril 1881, paris, 1905, p7.
- 4- A.M.G.H. 376, lettre de monsieur le préfet d’Oran, à monsieur le gouverneur générale civil de l’Algérie, Oran, le9 avril 1881.
- 5- A.M.G.H. 376 ; lettre du gouverneur général civil de l’Algérie , à monsieur le ministre de la guerre paris, Alger le 5 avril 1881.
- 6- Guy de Maupassant, au Soleil , Paris, 1902, p35-36 .
- 7- Graulle, op-cit, p9
- 8 - عبد الحميد زوزو ، ثورة بوعمامة ، 1881 - 1908 ، (جانباها العسكري 1881 - 1883) ، الجزائر ، 1981 ، ص47.
- 9- Graulle, p13-14.
- 10-H.M.P., de la Martinet et N.Lacroix, documents pour servir a l’étude du nord-ouest africain, tome2, Lille, 1896, p772.
- 11- Wachi. P, « notes ; Itinéraires et Souvenirs pour Service l’Histoire de la Province d’Oran, l’Insurrection de bou-Amama, (1881-1882) » ,r. t , 1904, p336-337.
- 12- Graulle, p 14.
- 13- A. M. G. H, 376 ; rapport du gouvernement général civil de l’Algérie monsieur le ministre de la guerre , n :31, Alger, le 15 mars 1881, au sujet des garnisons placer dans les divers postes qui êtres créés dans le sud d’Algérie.

14- Bezy, op-cit, p 18.

15- ibid, p 21.

16 - زوزو، المرجع السابق، ص13.

17- Graulle, op-cit, p35-41.

18- Ibid, p 42-43.

19- Djillali Sari, l'Insurrection de 1881-1882, Alger, 1981, p98.

20- Graulle, op-cit, p 74.

21-A.M.H. 376, Ordre général du 24 mai 1881.

22- Graulle, op-cit ; P48 cf sari, op-cit, P99.

23- Journal, le Mobacher, samedi 21 mai 1881, n 2224.

24- Boualem Bessaih, Etendard Interdit, paris, 1976, p 135-138.

❖ هو جون بابتيست سييري، ولد يوم 23 سبتمبر 1820 بمدينة ليموج، التحق بالمدرسة متعددة التقنيات سنة 1840، و تخرج رقيب في المدفعية سنة 1842 وبعد سنتين رُقي إلى رقيب أول قي صفوف اللفياف الأجنبي و مند 20 جانفي 1850 انضم إلى مصالح المكاتب العربية ثم عُين في مرتبة نقيب يوم 30 سبتمبر 1853 و كرس جهوده في خدمة المصالح الأهلية بالقطاع الوهراني أكثر من عشر سنوات و تنقل من بلعباس إلى تيارت و مستغانم، قائد دائرة الأغواط برتبة عقيد يوم 20 ديسمبر 1879، ثم قائد الفرقة العسكرية الوهرانية بالنيابة من 10 ديسمبر 1870 إلى 11 جوان 1871. ثم نولى قيادة الشعبية العسكرية من 14 أكتوبر 1871 إلى 9 جويلية 1878، و أخيرا قائد الفرقة العسكرية بوهران من 10 جويلية 1881 وانتهى نشاطه بالجزائر و تحول إلى فرنسا كقائد الفرقة العسكرية بمونبوليه. أنظر:

Le Commandant r. Peyronnet, livre d'or des officiers indigènes, 1830-1930, tome2, Alger, 1930, p295-296.

25- A.M.G.H.376, ordre général du 24 mai 1881.

26- Bazy, op-cit, p 52.

27- A.O.M.F. 80 1683b, Etat des Dommages Causés à la Compagnie franco sur les hauts plateaux de la province algérienne par l'insurrection qui a éclaté d'Oran en avril 1881.

28- Gaulle, op-cit, p91.

29- bezy, op-cit, p53.

❖ قبائل الأغواط الأكسل : أخذت هذا الاسم من المنطقة الجبلية و منها جبال الأكسل بجبال عمور، شمال غرب مدينة الاغواط و هم بدو من خمسة أقسام، هو الزريقات - أولاد مومن - قرارجة - أولاد عيسى - أولاد عمران و بذلك يمكن أن نميزهم عن قبائل الأغواط الأرباع المرتبطين بالأغواط المعلوم.

30- Aissa Milad, « Etude détaillée de Mohamed Belkheir », s. g. a. d'Oran, bulletin spécial sur le Contenaire de Bou-Amama , (1981-1982), p21-37.

31- Réveil de Mascara, n :85, 11 septembre 1881.

32- Graulle, op-cit, p 107.

❖ هو جنرال بفرنسا، فليكس قستاف سوسييه (Felix Gustave Saussier) ولد سنة 1828، يتورويس بقصر تيميكورت (Thimècourt) تخرج من المدارس العسكرية "سانت سير" (Sait-Cyr) سنة 1850 فرقة مشاة شارك في جميع الحملات إلى قامت بها الإمبراطورية الثانية. فر من موقعه "ماتز" (Metz) سنة 1870 بعد أن قاد فرقة عسكرية "لوار" (Loire)، قاد حملة تونس 1881، في سنة 1884 تم تعيينه حاكم باريس ثم استقلال سنة 1886 و بعدها أصبح نائب رئيس المجلس الأعلى للحرب.

1- A.M.G.H.376, lettre du général

Saussier, Commandant, le 19^e corps, d'arme, à monsieur le ministre de la guerre. paris, Oran, le 18 juillet 1881.

33- A.M.G.H. 376, Lettre du Général Saussier, ct le 19^e corps, monsieur le Général Delebecque, ct la division d'Oran, le 02 septembre 1881.

34- A.M.G.H. 376.

35- A.M.G.H. 376, rapport d'ensemble sur les Opérations Exécutés du 08 au 16 novembre 1881.

36 - يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص353

37- A.H.Noel, « Documents pour Servir à l'Histoire des Hamyan », in b . s. g. ar. D'Oran , n :3, 1916 p18-20.

38 - بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 255-256.

39-Le Martiniere et Lacroix, documents , tome 2, p 915

40- Boualem Bessaih op-cit p 123-125.

41- A.O.M.30h79, Télégramme du 10 Aout 1883.

42- A.M.G.H. 30h79, Confirmation d'un Télégramme du 11/09/1883.

43- A.M.G.H. ,30h80, mai-juin, 1888.

45- Augustin Bernard et N. Lacroix, la pénétration saharienne, (1830-1906) Alger, 1906, p95

46- Bul, Com , Afr ,Fran, juin 1828, p 200-201.

47- Garrot, Henri, histoire générale de l'Algérie Alger, 1910, p 989-999.

48- Rinn, Louis, « nos frontières sahariennes », in-RA, Alger (n:30 ,1886), p220-221.

49- Bernard. A et lacroix. N, op-cit, p95.

50- Journal, l'Echo d'Oran, n : 6153 du 07 juillet 1888.

51-Bernard. A et Lacroix. N, op-cit, p 102.

52- Ibid., p113-114.

❖ الأمان : قضية انشغلت بها الدوائر الاستعمارية الفرنسية كثيرا خاصة مع الشيخ بوعمامة، فمنذ عهد الوالي العام "تيرمان"(Tirman) سنة 1883 عُرِضت هذه القضية، وبقيت مطروحة إلى آخر عهد الثورة، و ذلك للإختلاف الحاصل في وجهات النظر بين الطرفين ، فالشيخ بوعمامة كان يرى في هذا الموضوع التفاوض من أجل الصلح و السلم والأمن للجميع والإحترام المتبادل داخل مناطق نفوذ الطرفين بينما ترى السلطات الفرنسية أن منح بوعمامة الأمان معناه الإستسلام لها بدون قيد أو شرط.

53- l'Aman de Bou-Amama .A.O.M., 30h80 , note relative-

54-A.O.M. 30h79.

55- A.O.M. 30h30, lettre du générale Boitard, Commandant la Division d'Oran, à Monsieur le Gouverneur général de l'Algérie, Oran, le 20 mars1895.

56-A.O.M, 30h79, Composition des Campements de Bou- Amama.

57-A.O.M, 30h79, Plan des Campements de Bou-Amama Aoudj-Tahtani.

58- عبد الحميد زوزو ، ثورة بوعمامة 1881-1908، الجزء الثاني، الجزائر 1983، ص21.

59- A.O.M, 30h80, Note Relative l'Aman de Bou-Amama .

60-A.M.G, 1h1025, Note Pour la Section d'Afrique, paris , le27 juillet 1898.

61- Bul, Com , Afr, Fr, Janvier1901, p14.